المحاضرة الرابعة
العلوم عند العرب : علم الفقه (٢)
مذهب أهل البيت (ع)

يقوم هذا المذهب على فكرة أن النبوة والإمامة أصلان يرجع أمرهما إلى الله تعالى ، فمثلما يختار الله النبي (ص) كذلك يختار الإمام ، ولما كان النبي معصوما عن كل صغيرة وكبيرة لئلا تكون أحكامه عرضة للطعن فان ما يصدر عنه إنما هو وحي ((وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)) ، فكل ما يصدر عن النبي (ص) إنما هو وحي من الله بإحدى صور الوحي وهي الكلام المباشر مع الله تعالى كما في معراج النبي (ص) أو من القرآن أو الأحاديث القدسية أو من جبرئيل أو أحد الملائكة أو بالرؤيا أو الإلهام ، وفي مذهب أهل البيت (ع) لم يكن النبي (ص) مجرد مبلغ وإنما موضح لمراد الشريعة ، وبعد وفاته انتقلت هذه الوظيفة للإمام المعصوم الذي تم اختياره من قبل الله كما في آية الولاية وأحاديث المنزلة والغدير والثقلين وغيرها ، من هنا كان الأئمة يؤدون هذا الدور ورغم أنهم منعوا من أداء دورهم في الحاكمية لكنهم لم يتوانوا عن أداء دورهم الرسالي ، فتولي الحكم هي مفردة من مفردات مسؤولية الإمام ، فإن تولى الحكم فبها ، وإن حالت الأمة دون ذلك فالأمة مسئولة ومحاسبة على ذلك ، لكن عدم توليه للحكم لا يعني زوال إمامته ، فكثير من الأنبياء لم يتولوا الحكم ومع ذلك لم يسقطوا من ديوان الأنبياء .

من هنا كان الأئمة مرجعا للأمة بما فيها الخلفاء ، فكثرما رجعوا للائمة (ع) حتى أثر عن الخليفة عمر قوله ((لولا علي لهلك عمر) و(لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبا حسن) ، وكان معاوية يكتب لأمير المؤمنين (ع) وللإمام الحسن فيما يكتبه له ملك الروم ، ولما واجهت عبد الملك ين مروان الأزمة الاقتصادية استعان بالإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) كما ذكر ابن كثير في أزمة القراطيس ، وقد أخذ عبد الملك بالفكرة التي طرحها زين العابدين (ع) فتم تحرير النقد الإسلامي من السيطرة الأجنبية ، وواجهت المتوكل العباسي مشكلة تحد النصارى الذي لم يتمكن من علاجها ألا بالرجوع إلى الإمام الحسن العسكري (ع) .

تروى الروايات التاريخية انه قد اتخذت مواقف متشددة حيال أئمة أهل البيت (ع) حتى كانت نهاياتهم القتل والسجن والسم ، وكان من اشد ما لاقاه أهل البيت (ع) النكبة المروعة بالبيت النبوي في كربلاء التي استهدفت تصفية البيت النبوي وما تلاه من حمل رؤوسهم وسبي نسائهم في دلالة واضحة أن هذا البيت ليست له أي قداسة ، لذا عاش أئمة أهل البيت (ع) تحت سلطة الخلفاء سجنا وقتلا حتى انتهى الأمر إلى الإقامة الجبرية للإمامين علي بن محمد الهادي والحسن بن علي العسكري (ع) في مقر الخلافة العباسية في بغداد ، وبنهاية الإمام الحسن العسكري لم يكن لولده الإمام محمد بن الحسن الملقب بالمهدي من العمر سوى خمس سنوات ، وقد جرت محاولات شتى من قبل الخلافة يساعدها نظامها الفقهي للتخلص منه إلا أنها فشلت ، واقتضى الأمر في فكر مذهب أهل البيت غيبة هذا الإمام إلى أن يشاء الله .

في الحقيقة أن فكرة المهدوية (المخلص المنتظر) أو (مخلص آخر الزمان) هي عقيدة إسلامية بل عالمية ، فقد تحدثت الأديان عن ظهور محلص آخر الزمان وادعى كل دين أنه منه فهناك اليهودي المنتظر ، والمسيح المنتظر والسفياني المنتظر ، وفي العقيدة الإسلامية هناك رأيان في هذا المخلص :

الأول : أنه سيولد آخر الزمان من أي فرع من فروع بني هاشم .

الثاني : أنه ولد في سنة ٢٥٥ هـ واضطر للغيبة عن الأنظار سنة ٢٦٠ هـ بعد أن ملئت الأرض ظلما وجورا ، وأنه تحديدا محمد المهدي بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي السجاد بن الحسين الشهيد بن أمير المؤمنين علي (ع) من زوجته السيدة فاطمة بنت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وبعد غيبة الإمام المهدي (ع) لجأ شيعة أهل البيت (ع) إلى فتح باب الاجتهاد في استنباط الأحكام حتى يومنا هذا ، ويجب لمن يتولى الاجتهاد الإلمام بعلوم شتى كعلوم القرآن والسنة النبوية واللغة العربية ، والقدرة على الاستنباط ، ومع أن مذهب أهل البيت يعتمد على أحاديث النبي (ص) المأخوذة عن أئمة أهل البيت ، لكنهم لا يمانعون من الاعتماد على الأحاديث المأخوذة من غيرهم بعد دراستها سندا ودلالة ، شريطة ألا يكون أصحابها ممن يعرف بالنصب لأهل البيت (ع) ، والنواصب هم من يعلنون العداء لأهل البيت فهؤلاء تسقط عدالتهم . أما من لا يستطيع أن يصل لدرجة الاجتهاد وهم عامة الناس فعليهم أن يقلدوا مجتهدا ما عرف بالأعلمية والورع والالتزام على جادة الصواب والعدالة وطهارة المولد . ومازالت مدرسة أهل البيت إلى اليوم تلتزم بالاجتهاد لمواكبة تطورات العصر ومعالجة الكثير من الحوادث التي لم يكن لها حكم فيما مضى ، لذا فكثير من المسلمين يجدون حلا للمشاكل السياسية والاجتماعية في مذهب أهل البيت (ع) .